

الاستبداد..

د. محمد صابر عرب

في بدايات عام ١٨٩٩ وفد عبد الرحمن الكواكبي إلى القاهرة قادماً من حلب وهو في السابعة والأربعين من عمره، وقد توطدت علاقاته بكوكبة من العلماء الذين كان يمضي معهم أمسيات ثقافية شارك فيها رشيد رضا، والشيخ علي يوسف، ومحمد كرد علي، وطاهر الجزائري، ورفيق العظم وغيرهم.

لقد أخذ الكواكبي سكناً له بالقرب من مسجد الحسين في القاهرة الإسلامية، وكان المصريون قد عرفوه قبل مقدمه من خلال كتابه الشهير "أم القرى" الذي كان قد كتبه ونشره وهو في حلب قبل مقدمه إلى القاهرة، وعندما توثقت علاقات الكواكبي بالشيخ علي يوسف صاحب جريدة "المؤيد" راحت الجريدة تنشر مقالات دارت في مجملها حول الاستبداد، لعل الكواكبي كان قد كتبها قبل مقدمه إلى القاهرة، وراح الناس يتساءلون وهم يقرؤون بشغف مقالات من نوع جديد تهاجم الاستبداد والمستبدين رغم علاقة صاحب "المؤيد" الوثيقة بالمستبد الكبير السلطان عبد الحميد.

لقد تضاربت آراء القراء فمن قائل بأنها بقلم الشيخ محمد عبده، ثم انصرف الناس عن هذا الرأي لأن العلاقة بين الشيخ علي يوسف، صاحب المؤيد وبين الشيخ الإمام لم تكن على ما يرام، ومن راح يقول بأنها ترجمات من كتابات "مونتسكيو أروسو" وعندما تأكد الناس من شخصية الكواكبي أكبروا فيه هذه الشجاعة الكبيرة، وعند انتهاء نشرها في سلسلة متواصلة من المقالات، جمعها وأعاد تنقيحها وصياغتها في كتاب تحت عنوان: "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" وقد نشره عام ١٩٠٠م.

لعل الكواكبي كان أول مفكر عربي يطرق هذا الموضوع، على الرغم من خطورته وقتئذ؛ باعتباره كان نمط الحكم السائد في كل بلاد الشرق.

لقد مضى الكواكبي في توصيف الحكومة المستبدة، سواء حكومة الحاكم الفرد المطلق الذي تولى الحكم بالغلبة؛ أو الوراثة؛ أو حتى الحاكم

المنتخب، متى كان غير مسئول أمام مجالس نيابية منتخبة، وخرج الكواكبي بثلاث نتائج رئيسية:

أولها: كل الحكومات مستبدة ما لم تكن مسئولة أمام مؤسسات نيابية.

ثانيها: إن المستبد يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم ويحاكمهم بهواه، لا بشريعتهم، ويعلم أنه الغاصب، لذا يضع كعب رجله على أفواه الملايين، يسدها على النطق بالحق.

ثالثها: المستبد دائماً عدو للحق وعدو للحرية وقاتلها، وعلى الأمة عندئذ أن تعرف مقامها: هل خلقت خادمة للمستبد؟ أم جاءت به ليخدمها فاستخدمها؟

لعل أهم ما ورد في هذا الكتاب هو المبحث الخامس والعشرين، الذي جعل عنوانه: "السعي في رفع الاستبداد".

لقد ناقش الكواكبي في هذا المبحث القضية من كل جوانبها مؤكداً على أن الأمة التي لا يشعر أفرادها بالآلام الاستبداد لا تستحق الحرية، وأن السعي نحو رفع الاستبداد لا يتأتى إلا بتهيئة المجتمع ورفع مستواه الاجتماعي والسياسي، حتى لا تحدث فوضى قد تأتي على المجتمع أفراداً ومؤسسات.

لقد حرص الكواكبي على تذكير المستعبدين بما أنذرهم به الكاتب الإيطالي الشهير "فيكتور فيري" (١٧٤٩ - ١٨٠٣) الذي قال: "لا يفرض المستبد نفوذه بعظيم قوته، فكم من جبار عنيد جندله مظلوم صغير"، ثم راح الكواكبي يشرح طرق نشر الاستنارة بين الناشئة كمقدمة للقضاء على الاستبداد، وذكر الشباب الناشئة إلى أن من يأنس في نفسه استعداداً للنبوغ فليحرص على أن يجتهد في تنمية معلوماته في العلوم النافعة كالقانون والسياسية والاقتصاد والتاريخ والإدارة... إلخ.

لقد ناقش الكواكبي أساليب التخلص من الاستبداد؛ الذي رأى أنه لا يقاوم إلا برقي الأمة من خلال تعليم أبنائها لأن المستبد دائماً محفوف بقوات ردع رهيبه تدافع عن كيانه ووجوده؛ إضافة إلى قوة المال وقوة رجال الدين وقوة أصحاب الثروات؛ الذين ارتبطت مصالحهم بالمستبد الكبير، كل ذلك يجعل الاستبداد كالسيف لا يقابل بعصا الرأي العام. ولا ينبغي مقاومة المستبد بالعنف حتى لا تكون فتنة تحصد الناس حصداً،

ومن الضروري أعمال العقل والحكمة في توحيد الجماهير نحو تأسيس العدالة، وخير عدالة هي إقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد.

لقد راح الكواكبي يخطط لمن يريدون الإطاحة بالمستبد وجماعته ورسم في ذلك طرائق شتى، وأكد الرجل على أهمية أن تشعر الأمة بآلام الاستبداد.

لقد كان الكواكبي يشير في كل ما كتب إلى العثمانيين لكن لم يذكرهم صراحة، ولم يذكر اسم مستبدهم الكبير السلطان عبد الحميد ولا اسم ولاته حكام الولايات العربية، وتحسباً من أن يبطش العثمانيون به فقد أشار في تقديمه للكتاب إلى أنه لا يقصد حكومة بذاتها ولا حاكماً بشخصه؛ وإنما قصد الاستبداد بالمعنى العام، والمستبد في أي مكان من العالم.

والحقيقة أن الكواكبي كان يقصد العثمانيين في كل ما كتب، وليس من الصعوبة أن يكتشف أي باحث هذه الحقيقة، وخصوصاً وأن المظالم التي اكتوى بناها الكواكبي على أيدي الولاة العثمانيين في حلب، لم تكن خافية على معاصريه، وأن دسائس الشيخ أبي الهدى الصيادي كانت ماثلة أمام الجميع.

لقد كان الكتاب في مجمله يفيض إخلاصاً وغيره على العرب، وحرزاً ومرارة على ما آلت إليه أحوالهم، وكان يتطلع لرفع نير الاستبداد عن الشرق، لكن الكتاب كان بمثابة دراسة نظرية بحتة خلت تماماً من الصور الواقعية التي كان الكواكبي يملك بحكم خبرته وترحاله نماذج عملية لحالات الاستبداد بأسمائه وشخصه، لكن ابتعد تماماً عن ذلك، وهو ما نفت نظر رجل كأحمد أمين الذي قال: "كان من الممكن أن يكون الكتاب أوقع في النفس لو ملأه بالشواهد، وما رأى وسمع من أحداث... فلو قرن النظريات بالشواهد لكان أكثر فائدة وأعم نفعاً.

اللافت للنظر أيضاً أن الكواكبي لم يكتب اسمه على الكتاب واكتفى بأن رمز إلى ذلك بعبارة "الرحالة ك" بينما كتب اسمه صراحة على كتابه: "أم القرى" وقد أشار إلى ذلك في تقديمه، أنه مضطر للاكتتام شأنه شأن كل ضعيف، وهو اعتراف خطير إذ صور نفسه في صورة الرجل الضعيف الذي يصدع بما يؤمر به، مع أنه كان على النقيض من ذلك تماماً، فقد سبق له أن هاجم الدولة العثمانية هجوماً عنيفاً في كتابه "أم القرى".

لقد أقام الكوكبي في القاهرة زهاء عامين (١٩٠٠ - ١٩٠٢ م) وفي مساء ١٤ فبراير ١٩٠٢ بينما كان جالساً على أحد مقاهي الأزبكية كعادته شعر بألم مفاجئ وقبل منتصف الليل كان قد فارق الحياة إثر أزمة قلبية حادة. ما أوجنا إلى قراءة ما كتبه الكوكبي منذ أكثر من قرن لعله يقدم وصفاً دقيقاً لأمراضنا وأدراننا العربية المعاصرة.

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب
والوثائق القومية المصرية

Email: chairman@darelkotob.gov.eg